اللاجئ بين هاجس الاندماج ووجع الذاكرة في رواية جمهورية الكلب استعادات لوقائع غامضة لإبراهيم اليوسف.

The Refugee between the Obsession with Integration and the pain of Memory in Ibrahim Al- Yousef's the Republic of the Dog: Recollections of Obscure Events.

د/ سلمى أوكسل *
Selma Ouksel
مخبر تعليمية اللغة العربية والنص الأدبي الجزائري -الواقع والمأمول-
جامعة العربي بن مهيدي -أم البواقي- (الجزائر)
University of Larbi Ben Mhidi, Oum El Bouaghi(Algeria)
selmaselmamaster@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2025/09/15	تاريخ القبول: 2026/01/26	تاريخ النشر: 2026/03/02

ملخص البحث

يعد مصطلح اللجوء من أكثر المصطلحات رواجا في العصر الحديث، وجزءا من نسيج الحياة الاجتماعية والثقافية، وبما أن الأدب مرآة عاكسة للواقع والأديب ابن بيئته ومجتمعه فقد صور مأساة اللجوء التي عاشها الإنسان، وأدب اللجوء يحاول فهم سلوك المجتمعات اللاجئة فيكتب الروائي وهو يثير إشكالات: الهجرة، الاغتراب، الهوية، البحث عن الذات، فهم الآخر، الانشطار بين عالمين مختلفين، التقوقع أو الاندماج في العالم الجديد.

وعليه، فإن الغاية من هذا البحث هي الوقوف على حضور هذه القضايا في رواية "جمهورية الكلب استعادات لوقائع غامضة" للروائي "إبراهيم اليوسف"، التي تدرج في خانة سرديات اللجوء حيث تعرضت لهجرة السوريين إلى ألمانيا بعد الحرب، وتسلط الضوء على صعوبة الاندماج في المجتمع الجديد، وتقارن بين عالمين مختلفين عالم الذاكرة أي الماضي في مدينة القامشلي وعالم الواقع الحاضر في برلين، ويفترض أن يكون هذان العالمان حاضرين في ذهن كل لاجئ، ومن هنا تنبثق الإشكالية الجوهرية لهذا البحث: إلى أي مدى استطاعت الرواية إبراز مأساة اللجوء و تمثيل مسألة الهوية والاغتراب داخل سياقها السردي؟

الكلمات المفتاح: لجوء، هوية، اغتراب، اندماج، تماهي.

Abstract:

* سلمى أوكسل: selmaselmamaster@gmail.com

The term refugee is among the most prevalent concepts in the modern era, Since the writer is the son of his environment and society, it has portrayed the tragedy of refuge experienced by human beings. Refugee literature seeks to understand the behaviour of displaced communities, as the novelist writes while addressing issues of migration, alienation, integration, integration into the new world.

Accordingly, the aim of this research is to examine the presence of these issues in Ibrahim Al-Yousef's novel The Republic of the Dog: Recollections of Obscure Events, which falls within the framework of refugee narratives, from this perspective emerges the central question of this research: to what extent has the novel succeeded in representing the tragedy of refuge and in portraying the questions of identity and alienation?

Keywords: Refuge, Identity, Alienation, Integration, Assimilation.

مقدمة:

ليس الوطن أكثر من مجرد مكان جغرافي يحدد إقامة الإنسان، بل هو أعمق من ذلك إنه فضاء معنوي يشكل هويته وانتماءه، ومن هنا تتجاوز العلاقة الحضور المكاني لتشمل البعد النفسي والثقافي والوجودي والاجتماعي، ويظل هذا الوطن حاضرا في وعي الإنسان وإن غادره يبقى رابط غير مرئي يجذبه نحو الذاكرة وهو في حالة الغربة والمنفى، فيتحول إلى رمز مركب للصراع بين الماضي والواقع الجديد ويصبح إطارا لأسئلة الهوية والاغتراب والانتماء، يقول الباحث خاص الجلبي: "من يفقد وطنه يفقد كل شيء، من دون حبل سري ومشيمة ثقافية، يمشي فوق أرض من دون جاذبية، فقد التوازن الخلاق، مكبا هائما على وجهه، هل يستوي هو ومن يمشي معا على صراط مستقيم؟ في ورطة من نوع محير، فلا الشرق يعجبه، ولا الغرب يسعده، يعيش نفسيا في الأرض التي لا اسم لها."[1] إن كلمة الوطن أوسع الكلمات التي يستطيع الإنسان التعبير عنها فهو حين" يتحدث عن الوطن يكون قاصداً بذلك كل ما يتعلق بكينونته ووجوده مُذ خلق، ويكون قاصداً بذلك كل المشاعر والعلاقات التي ربطته بذلك المكان الذي احتواه، وضمّ في ثناياه كل ما يتعلق بحياته! ولم يكن الاغتراب عن الوطن سهلاً، ولا أمراً عابراً."[2] يقدم النص الوطن بالنسبة للإنسان مركز توازنه النفسي والاجتماعي والثقافي، والاغتراب كمأساة وجودية تتجاوز المكان لتطال النفس والذاكرة والهوية، فعبارة "يمشي فوق أرض من دون جاذبية" و "فقد التوازن الخلاق"، تشير إلى الاضطراب النفسي والخلل في التوازن

الوجداني الذي يعيشه الإنسان وسط ثقافات مختلفة، مما يوضح أن فقدان الوطن ليس مجرد حدث مكاني، بل حرمان من صلة حياتية وثقافية وروحية.

ومن ثم، يصبح من الضروري التطرق إلى أحد أسباب الاغتراب وهو اللجوء الذي تنامى في السنوات الأخيرة خاصة مع ما يعرف بالربيع العربي ليصبح جزءا من نسيج الحياة الاجتماعية والثقافية، واللجوء لا يختاره الإنسان حبا؛ وإنما هروباً من ظروف القلة والذلة، يحمل صيغ المجافاة والمقاطعة والتخلي والتنحي وكيانات الفقدان، لم يعد مجرد مغادرة للأرض فحسب لأن هناك نوعا من الاجتثاث حد التشقق والتمزق سيحدث ندوبا في الذات المهاجرة من وطنها، جراء وضعيات التهميش والنبذ أو الحروب بحثا عن الأمن والسكينة "فالهجر ضد الوصل فالهجرة انفصال وانقطاع، هنالك شيء في الذات ينفصل، شيء من الذات ينقطع، بحكم أن الذات تتخذ منبتا لها الأرض التي ولدت فيها ووجدت عليها، كالنبتة التي يتم استئصالها من جذورها فتنبت في أرض أخرى ومناخ آخر، قد تتأقلم وتزدهر، وقد تتلاشى وتذبل، هذه المناسبة بين الذات والنبات ليست مجرد استعارة تجميلية في الأسلوب، إنها نظرية ثقافية حول التجذّر الغائر للذات في الأرض النابعة منها."[3] فالذات الإنسانية متجذرة في المكان الذي ولدت فيه تماما كالنبتة التي تستمد حياتها من الأرض التي زرعت فيها، وهذه المقارنة بين الإنسان والنبات ليست مجرد استعارة لغوية، بل إطار فكري يوضح عمق الترابط بين الإنسان ووطنه الأم، فالتجذر هو جزء من الهوية والهجرة هي انفصال عن الجذور ما يترتب عنه تأزما نفسيا وثقافيا.

كان التعبير الفني والأدبي لهذه الحالة سريعا في الظهور وقد اشتغل عليه المتن الروائي الذي صور مأساة اللجوء والنكبات والويلات التي مرت بها البلدان العربية، وتصنف رواية "جمهورية الكلب استعادات لوقائع غامضة" للروائي "إبراهيم اليوسف" في خانة سرديات اللجوء، وقد اخترنا مقاربتها من هذه الزاوية لأن اهتمام المجتمع الألماني بالكلاب يتحول داخل الرواية إلى علامة ثقافية، تستثمر سرديا للكشف عن مستوى الاندماج وحدود القبول المشروط الذي يفرض على اللاجئ داخل المجتمع المضيف، متجاوزين في ذلك القراءة الموضوعاتية إلى تتبع الأنساق المضمرة التي تنتظم الخطاب الروائي، بوصفه حقلا دلاليا يكشف عن علاقات القوة التي تؤطر تمثيل الذات اللاجئة والآخر الغربي، وكيف تتحول اللغة والعادات إلى أدوات هيمنة ناعمة تعيد إنتاج التبعية الثقافية، وبناء على ما تقدم تطرح الإشكالية الجوهرية: إلى أي حد نجحت الرواية في تصوير مأساة اللاجئ وتجسيد تجربة الاغتراب على الهوية والانتماء؟

1- اللجوء في اللغة والاصطلاح:

1-1-اللجوء:

جاءت كلمة اللجوء في المعاجم العربية من "لجأ إلى الشيء، تحصّن به، ويلجأ لَجأً، والتجأ، وألجأه إلى الشيء: اضّطره وأحوجه، وألجأه: عصمه، وألجأ أمره إلى الله أسند، والملجأ واللَّجأ: المعقل والمكان."[4] وعليه فإن لفظة اللجوء تحمل دلالات الخروج والاحتماء والملاذ والاعتصام بجماعة ما اضطرارا وإكراها وإلزاما.

أما في التعريف الاصطلاحي "فهو الحماية التي تمنحها دولة فوق أراضيها أو فوق أي مكان تابع لسلطتها لفرد أو مجموعة من الأفراد طلبوا منها الحماية، بعد أن تعرّضوا للظلم والاضطهاد في بلدهم، لأسباب متعددة قد تكون سياسية أو

علمية أو اجتماعية، أو مادية."[5] انطلاقا مما تقدم فإن مصطلح اللجوء تتعدد مفاهيمه وأسبابه فهو الهجرة أو الانتقال من الوطن الأصلي إلى بلد أو إقليم آخر مستضيف، وهو في أغلبه قسري وإكراهي هروبا من الحروب والنزاعات ومن الأجواء الاستبدادية وبحثا عن الأمن والرخاء والإنسانية والاستقرار.

1-2-اللاجئ:

جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أن "لكل فرد حق التماس ملجأ في بلدان أخرى، والتمتع به خلاصا من الاضطهاد، ويقول الكاتب السوري عبد الحميد محمد في تصديه لسوسيولوجيا اللجوء ومفهومه: تبدو كلمة لاجئ كصفة مكناة لفرد ما كافية لتبدو مذمة له، وترى التأفف باديا على محياه فهي تمتد على سيل مفتوح من الصفات كالعوز والحاجة لكن الأمان يتصدر كل الاحتياجات."[6]

واللاجئ هو "كل شخص يوجد خارج بلد جنسيته، بسبب خوف له ما يبرره، من التعرض للاضطهاد بسبب العنصر أو الدين أو القومية أو الانتماء إلى طائفة اجتماعية معينة، أو إلى رأي سياسي، ولا يستطيع ذلك الخوف، أو لا يريد أن يستظل بحمايته."[7]

من خلال ما سبق يتضح الحق في اللجوء من جهتين: الجهة القانونية حماية له من التعسف بسبب هويته أو آرائه أو معتقده، ومن جهة التجربة الإنسانية والنفسية التي يعيشها اللاجئ سواء من ناحية الخطر الذي يواجهه أو من ناحية الوصمة الاجتماعية كونه لاجئا.

2-دوافع اللجوء: خطوات تبحث عن وطن:

تعددت دواعي وأسباب اللجوء وقد حددت الاتفاقيات العالمية جملة من هذه العوامل وهي على النحو التالي[8]:

- ✓ الخوف: ويقصد بالخوف ما كان ناتجاً عن التعرض للتعذيب والاضطهاد، وهو حالة نفسية تستدعي من اللاجئ الهروب إلى مكان يشعر فيه بالأمان.
- ✓ الاضطهاد: وهو ما كان ناتجاً عن التعرض والتهديد للحياة والحرية، وانتهاك حقوق الإنسان التي نصت عليها الإعلانات والمواثيق الدولية.
- ✓ التمييز: ويطلق على الاختلاف في المعاملة، الحقوق والفرص، ما يولد شعوراً بعدم الأمان.
- ✓ العرق: ويطلق على الانتماء إلى فئة اجتماعية معينة تُشكل أقلية ضمن مجموعة من السكان.
- ✓ الدين: وهو المعتقد الذي يعتنقه الإنسان، والحرية الدينية مكفولة وفق الإعلانات والوثائق الدولية.
- ✓ الانتماء: يكون الانتماء سببا من أسباب اللجوء، إذا انعدمت الثقة في ولاء فئة معينة للنظام السياسي الحاكم، مما يعرضها للملاحقة والاضطهاد.
- ✓ الرأي السياسي: وهو ناتج عن اعتناق آراء سياسية مخالفة لما يعتقده النظام السياسي الحاكم مما يؤدي إلى الخوف من الاضطهاد، إلا أن ذلك الخوف لابد أن يكون له ما يبرره من انتهاكات فعلية كالسجن أو التضييق.

يكشف هذا التعداد أن اللجوء هو استجابة قسرية لواقع قمعي، فاللاجئ لا يغادر وطنه إلا حين يصبح البقاء فيه يشكل تهديدا لهويته وحريته وكرامته ما يجعل البقاء في الوطن خطرا على الحياة، وبالتالي فإن هده الدواعي تمثل خلفية مهمة لفهم مأساة اللاجئ في بعدها الوجودي والنفسي، وهذا ما ينعكس بوضوح في سرديات اللجوء.

3-أدب اللجوء: سرديات الاقتلاع والتيه في فضاءات المنفى:

يعد مصطلح اللجوء من أكثر المصطلحات رواجا في العصر الحديث، ومن أكثرها تداولا في المجالات السياسية والاجتماعية والقانونية، والأدب بوصفه مرآة عاكسة للحياة فإنه لا ينأى عن واقعه لذلك فقد تناول ظاهرة اللجوء وهو يرصد مآسي ونكبات الشعوب، و لأن اللجوء" يمس جانبا من جوانب أزمة الإنسان في العصر الحديث، فإن اللاجئ يعاني توترا نفسيا وقلقا مؤرّقا وعدم الشعور بالقدرة على الانسجام مع أفراد مجتمعه في وطنه الأم أو في أوطان اللجوء الجديدة، أو حتى التفاعل مع المجتمعات المختلفة عنه لغويا وثقافيا وحضاريا، وبات التلاؤم مع الثقافات الجديدة من أكثر ما يؤرق الإنسان اللاجئ، لقد ألقت ظاهرة اللجوء بظلالها على حياة الإنسان فكريا ونفسيا ليغترب جغرافيا بجسده عبر اللجوء من مكان إلى آخر أو بالانطواء على الذات ورفض الأعراف الاجتماعية السائدة في بلد اللجوء".[9]

يقدم النص رؤية مفادها أن اللاجئ يعيش صراعا مزدوجا بين المكان والمجتمع الجديد وصراعا بين هويته وانتماءه الثقافي، لذلك فالتكيف مع الثقافات الجديدة أحد أكبر التحديات التي تواجه اللاجئ مما يجعل هذه التجربة معقدة ومتعددة الأبعاد.

يعرّف أدب اللجوء "بأنه أدب منبثق من حالة مخصوصة ومحددة بزمن ومكان معينين، وموضوع يوثق لصورة الإنسان اللاجئ ومعاناته بعد انفصاله عن موطنه الأصيل، لأسباب تتعلق بعدم وجود بيئة آمنة أو مساحة حرية يمارس فيها حياته الطبيعية، وكان اللجوء عنده الخيار الأخير."[10]

فهذا الأدب موضوعه الأساسي هو توثيق معاناة الإنسان اللاجئ، ويبرز هذه الحالة الاستثنائية التي غالبا ما تكون هي الخيار الأخير أمامه لحماية حياته كما يعكس أبعادها الناتجة عن الغربة والاغتراب.

وإلى جانب مصطلح أدب اللجوء تحضر في السياق ذاته مسميات كثيرة بين أدب الهجرة وأدب المهجر وأدب المنفى وأدب الشتات، ويفرق الأستاذ طارق بوحالة بين أدب الهجرة وأدب المهجر فيرى أن الأول "يتجاوز المفهوم التقليدي للثاني الذي عرف في القرنيين التاسع عشر والعشرين، فهو حالة خاصة ومحددة ارتبطت أساسا بالكتاب والأدباء الذين هاجروا من بلدانهم العربية، والذين اهتموا أكثر شيء بالكتابة عن أوطانهم وما تعانيه من فقر وتخلف...أما أدب الهجرة أو الأدب المهاجر فيكتسي نوعا آخر إنه خطاب متخيل يلجأ إليه الكتاب للتعبير عن الكتابة الإبداعية المنبثقة عن إشكالات ومفاهيم جديدة، طرحتها تلك العلاقة الخاصة بين شعوب العالم الثالث وبين خطابات وأدبيات شعوب العالم الغربي على نحو: الهوية والغيرية والذاكرة والدولة الوطنية والأمة والهجرة وغيرها، مما يؤطر مقولتي الصراع والحوار الثقافيين."[11]

يتضح من خلال هذا القول أن طارق بوحالة ميز بين مصطلحين هما: أدب الهجرة وأدب المهجر على أساس تطور التجربة الإبداعية وتحول أسئلتها الفكرية، فأدب المهجر يعبر عن تجربة تاريخية محدودة كانت نتاج هجرة عربية

انشغل فيها الكتاب بقضايا أوطانهم، أما أدب الهجرة فيمثل مرحلة أكثر تعقيدا ويتجاوز الإطار التقليدي فلا يقتصر على استعادة الوطن فحسب، بل يعكس تجربة ثقافية يشتغل فيها فضاء تفاعلي بين ثقافتين مختلفتين ويؤطر علاقة الأنا بالآخر.

وفضل الناقد عبد الله إبراهيم مصطلح أدب المنفى بدل أدب المهجر كون الأخير" حبس نفسه في الدلالة الجغرافية، فيما انفتح الأول على سائر القضايا المتصلة بموقع المنفي في العالم الذي أصبح فيه بدون أن تغيب عنه قضايا العالم الذي غادره."[12] يذهب عبد الله إبراهيم إلى اعتماد مصطلح أدب المنفى بدل مصطلح أدب المهجر، هذا الأخير في رأيه ظل محكوما بالدلالة الجغرافية واقترن أساسا بأدباء المهجر لا سيما في الأمريكيتين، مما أدى إلى تضييق أفق المصطلح وحصره في البعد المكاني أكثر دون النفاذ إلى العمق النفسي والوجودي للتجربة خارج الوطن، في مقابل ذلك انفتح مصطلح أدب المنفى على أفق دلالي واسع يتجاوز المكان إلى مساءلة الأبعاد النفسية والثقافية والفكرية وما يترتب عنها من إشكالات تلامس جوهر العلاقة بين الأنا والآخر من قبيل: الهوية، الانتماء، الاندماج، اللغة...

تتعدد المصطلحات أدب المهجر، الأدب المهجري، أدب المنفى، أدب اللجوء والنزوح، أدب الشتات، وتختلف التسميات التي يطلقها الآخرون على أنفسهم: الوافدون، النازحون، اللاجئون، المنفيون، المهاجرون إلى آخر ما يمكن أن تطلقه السياسة واللغة من أسماء، لكن ما يجمع بين هذه المصطلحات والمسميات هو الترحال من الوطن الأصلي إلى أوطان أخرى بسبب ظروف الحرب أو بسبب اختلاف الرؤى السياسية والإيديولوجية، وما يتولد عن ذلك من الرغبة في التحرر والانعتاق من بوتقة التضييق وشبح التسلط.

ويمكننا تصنيف رواية جمهورية الكلب للروائي إبراهيم اليوسف ضمن سرديات اللجوء، إذ تعرض تجربة هجرة السوريين إلى ألمانيا بعد الحرب، مركزة على التحديات اليومية التي تواجه اللاجئين في عملية الاندماج الاجتماعي والثقافي، ومقارنة بين عالمين متوازيين عالم الذاكرة وعالم الواقع وكلاهما حاضر في وعي كل لاجئ ويشكل إطارا نفسيا وثقافيا لتجربته.

تصور الرواية اللقاء بين آلان نقشبدي وبيانكا الملتزمة بتربية الكلاب، لتنشأ بينهما علاقة معقدة تكشف التباين في القيم والمبادئ، حيث تتمسك بيانكا بقناعاتها الشخصية، بينما يظل آلان مرتبطا بعاداته وقيمه العربية الإسلامية مما يصعّب اندماجه في المجتمع الألماني، ومن خلال هذه العلاقة يستعرض الروائي الصراع النفسي والاجتماعي للاجئ كردي، والتوتر بين الهوية الأصلية وبين العالم الداخلي والخارجي والغربة بكل تحدياتها.

3-اللاجئ وصدمة الاستئصال الثقافي:

3-1-اللاجئ وإشكالية الاندماج الاجتماعي والثقافي:

سواء أكانت الهجرة طوعيّة أم قسريّة كاللجوء، فلها خصوصيّاتها وميزاتها الّتي قدّ تتجاوز كلّ الحسابات، فمغادرة البلد الأم تشكّل بحدّ ذاتها صدمة نفسيّة كبيرة، وخاصّةً إذا كانت الفروق الثقافيّة كبيرة بين البلد الأم والبلد المضيف" فما إن يصل المهاجر إلى البلد الأوروبي؛ حتّى يشعر بأنّ كلّ شيء قد تغيّر بالنسبة إليه، الثقافة والعادات والتقاليد والمعايير وأسلوب الحياة، فأدقّ تفاصيل الحياة اليوميّة تأخذ شكلًا جديدًا بالنسبة إليه، هذه الفجوة بين بيئة البلدين واختلاف

المعايير والقيم الثقافيّة والسلوكيات الاجتماعيّة تُجبر المهاجر على ما أُطلق عليه في علم نفس المهاجرين بإعادة التعلّم الوجودي Réapprentissage existentiel، وهذا ما يُشكّل بالنسبة إلى بعض المهاجرين نوعًا من الصّدمة الثقافيّة."[13]، وهو ما عاشه ألان في ألمانيا في طريقه للتكيف مع البيئة الجديدة وهو الطاعن في السن حين قرر اقتناء كلب يقول: "أنا أعيش في مكان جديد، آكل من خبز هذا المكان أشرب ماءه، ولا بد من التماهي مع ما اقتنع به من تقاليد هذا المجتمع الجديد."[14] لقد أصرّ على تنفيذ رغبته على الرغم من أن عائلته استهجنت ورفضت هذا القرار يقول عمّه الذي حاول أن يثنيه عن فكرته: "لطالما كنت أتباهى بمواقفك، برزانتك، بحكمتك، بهدوئك، أتمنى ألا تتطبع بطبائع الألمان، لأنك عائد، كلكم عائدون، ودعوا ما لا يتلاءم منها مع طبيعتنا الحرب ستضع أوزارها وهم سيطردونكم إن لم يبتلعوكم."[15]

إن ما سبق يعكس وعيا مأزوما بالمنفى فاللجوء هنا لا يمثل حالة استقرار، بل مرحلة عابرة وحالة مؤقتة لا يجوز تحويلها إلى انتماء دائم، فالتنبؤ بالطرد والابتلاع تعكس شعورا عميقا بعدم الأمان، إذ ينظر إلى المجتمع الألماني بأنه فضاء غير آمن قد ينقلب على اللاجئ في أية لحظة، عبر الإقصاء والرفض مهما طال المقام وبالتالي يتحول الاندماج إلى فعل مرفوض من طرف العم لأنه نوع من التفريط في الهوية الاصلية.

لقد أصيب ألان بنوع من الهزة أو الصدمة لأنه لجأ إلى نمط مختلف عن نمط حياته السابق فهو الذي رفض في يوم من الأيام أن يشتري لابنته كلبا قائلا: "نحن مسلمون وطباعنا تختلف عن طباعهم وثقافتنا وعاداتنا تختلف عن ثقافتهم وعاداتهم، كل الحيوانات نشفق عليها ونعنى بها ولكن علينا أن نبعدها عن أماكن معيشتنا وإقامتنا، فهي موبوءة ومحرمة وغدا حين يعرف أهلنا في الوطن وحتى أبناء بلدنا الذين يقيمون هنا، أننا نربي كلبا فإنهم سيتحدثون عنا بالسوء ولن يزورنا أحدا سينبذوننا."[16] لكنه اتخذ قراره على حين غرة بلا مقدمات وصار شغله الشاغل اقتناء كلب ليخترق بذلك بعض المسلمات والقناعات التي كان يؤمن بها يقول: "إنه انقلاب كبير تم في حياتي، الثبات للجماد والتحول للكائن الحي."[17]

إن قرار اقتناء الكلب يمثل تحولا في منظومة القيم ونمط العيش بوصفه استجابة لضغوط الاندماج في المجتمع الألماني، والكلب هنا هو علامة ثقافية مرتبطة بأسلوب هذا المجتمع ما يجعل اقتناءه فعلا تقليديا واعيا لإعادة تشكيل العلاقة مع المكان الجديد، غير أن هذا التحول سيعمق الصراع بين ما يحمله الكلب في الثقافة الألمانية وما يمثله في الثقافة الأصلية، وبالتالي فإن هذا المشهد هو تمثيل لأزمة اللاجئ في سعيه لتحقيق التوازن النفسي، ويعزز هذا الموقف اعتراف وقبول الألمانية بيانكا له كصديق لاجئ ولتتوطد العلاقة بينهما أكثر فأكثر.

وفي معرض حديثها عن الكلاب بين الحضارتين الشرقية والغربية تعقد بيانكا مقارنة بين الثقافتين تقول: "كلابكم دربتموها على المذلّة، أما كلابنا فدربناها على الكبرياء، كلابنا تصطاد لنفسها، أما كلابكم السلوقية تصطاد لصاحبها...هل لديكم كلب يملك أموالا؟ أجزم لا كلب في بلادكم يملك حتى حريته، أمس قرأت في جريدة الديلي ميل أن الكلب جانثر الرابع يملك مئتين وسبعة وعشرين مليون جنيه أسترليني، ماعدا بعض الأملاك والقصور التي ورثها عن صاحبته، وفي أهم جزر العالم! إن رجالكم يقسون على نسائكم، نساؤكم يقسون على الأطفال، أطفالكم يقسون على كلابكم وحيوانكم."[18]

يقوم خطاب بيانكا على مقارنة رمزية حادة بين الذات الألمانية والذات اللاجئة، حيث يستعمل الكلب كأداة للمقارنة الحضارية ومرآه تقاس بها المجتمعات من ناحية الحرية والكرامة والرفاهية، فالحيوان في المجتمع الألماني يمنح حقوقا تفوق حقوق اللاجئ في مجتمعه الأصلي، وهو ما يعمق شعوره بالدونية والاغتراب عندما يشعر أنه أدنى مرتبة من الحيوان في البلد المضيف، كما يكشف القول تصورا نمطيا عن الشرق بوصفه فضاء للقسوة والاضطهاد: قسوة الرجال على النساء، قسوة النساء على الأطفال، قسوة الأطفال على الحيوانات، فهذه اللحظة السردية تحمل نزعة استعلائية تفوقية تعيد إنتاج ثنائية المركز والهامش.

إن هذا الحوار طرح الكثير من الأسئلة والمفاهيم الوجودية حول الانتماء، الأنا، الآخر، العلاقات، الاغتراب، الحب، الوفاء، الخيانة من خلال رمز بسيط وهو الكلب لكنه عميق ومن خلاله يتضح لنا الاختلاف الحضاري والفكري والثقافي بين العالمين الشرقي والغربي، وتلك النظرة الدونية الضمنية دائما عن المجتمعات الشرقية، وعن الصدمة الحضارية التي يعيشها ألان في ألمانيا التي هزت، هويته هل سينتمي للثقافة الجديدة التي تحتفي بالكلب ويتخلى عن مبادئه ويتبنى ما يرفضه وما لا يناسبه حتى يعترف به المجتمع الجديد أم للثقافة القديمة التي ترى فيه شيئا نجسا ؟

3-2-اللاجئ وإشكالية الاندماج اللغوي:

الاندماج هو قدرة المهاجر على الانخراط في مجتمع البلد المضيف انخراطا يجعله جزءا من ذلك المجتمع مثله مثل المواطن الأصلي، يماثله في الحقوق والواجبات ومن أنواع الاندماج أيضا الاندماج اللغوي وهو أول عتبة يتم عبرها تحقيق أنواع الاندماج الأخرى، ويقصد به التمكن من لغة البلد المستقبل قراءة وكتابة وتداولا" إذ إن معرفة تلك اللغة هي أحد الشروط الحاسمة للاندماج المهني والاجتماعي، فكلما تمكن الإنسان أكثر من لغة البلد الذي يعيش فيه بشكل مُسْتديم، زادت فرصته للاندماج في وقت معقول لذلك فإنه من مصلحة المهاجرين؛ بل أيضاً من مصلحة الدولة المهاجَر إليها نفسها، أن يتم اكتساب اللغة تحدُّثاً وكتابة.[19]"

اللغة إذن شرط من شروط الاندماج إلا أن ألان وجد عسرا في التماهي مع المجتمع الألماني لأنه لا يتقن لغته فهو كما وصفه ابنه الصغير:" لكنك، لم تتلق من ثقافة الألمان غير القشور، أنت تعرف الألمان من خلال روايات كتّابها الكبار، ومن خلال بعض البحوث عن سيكولوجيا إنسانها، قبل الحرب العالمية، وبعدها أنت لا تعرفهم... أنت أُمّيٌّ بلغتهم، قاموسك اللغوي، لا يكفي لفهم نشرة أخبار ألمانية، أو فهم خبر تلفزيوني ولو بسيط، رصيدك من اللغة لا يكفيك لقطع تذكرة باص نقل داخلي، أو شراء عبوة ماء."[20]

يقدم هذا المقطع تمثيلا دقيقا لأزمة اللغة في تجربة اللاجئ بوصفها شرطا أساسيا للاندماج اللغوي والاجتماعي، فالاندماج لا يتحقق بمعرفة الألمان من خلال آدابهم ودراساتهم، بل يتطلب امتلاك الكفاءة اللغوية العملية للعبور إلى الفضاء اليومي، وغياب القدرة على استخدامها جعله يعيش وكأنه في جزيرة معزولة داخل المجتمع الجديد وهذا الفشل اللغوي يولد اغترابا وانعزالا نفسيا يبقيه منفيا داخل المنفى.

إن جهل ألان للغة الألمانية وعدم تمكنه منها عرضه لمواقف محرجة في تعاملاته وجعله عاجز عن أداء أبسط الأفعال اليومية" كيف تريد البطاقة؟ البطاقات أنواع، أكتب له المبلغ الذي أريد سداده، فيستهزئ مني...يسألني مفتش الحافلة عن بطاقتي الشخصية، أجيبه بالإشارات، أنني نسيتها في جيب معطفي الآخر."[21] فهذا التلكؤ في النطق رمز

لفشله في عملية الاندماج فيلجأ في أحايين كثيرة إلى" قاموس هاتفيGoogle translate.[22] فهذه الاستعانة بأدوات الترجمة تفضح هشاشة ألان اللغوية لذلك فهو يعتمد على وسائل مساعدة وهذه المعاناة اللغوية تعكس شعورا عميقا باللانتماء فقد حكمت عليه اللغة بأن يظل غريبا عن المكان.

فحتى تحسن التفاعل مع هذا المجتمع عليك أن تتقن لغته لذلك قرر ألان أن يلتحق بإحدى مدارس اللغة ورغم ذلك لم يتمكن، وحدها بيانكا صديقته من كانت تداري ضعفه وما تعلمه على يدها لم يتمكن من تعلمه هو في المعهد" ميزة هذه المرأة أنها شبه الوحيدة التي أفهم ما تقوله، بل أرد عليها بألمانيتي المتواضعة، دون الشعور بأي حرج، وباتت تثري معجمي الألماني، تدريجيًا."[23]

يقول ألان" خطرت ببالي فكرة غريبة، واستفزازية، غير أني لم أتردد عن عرضها، إذ قلت: ألا ترين، أن الاندماج لا يكتمل إلا إذا اطلعتم أنتم، أيضًا، على لغاتنا، ثقافتنا، فولكلورنا، الاندماج عندكم ناقص، إنه اندماج من طرف واحد، إنه احتواء، ابتلاع للآخر."[24] يعكس هذا الموقف نقدا لسياسيات الاندماج في المجتمع الألماني من منظور اللاجئ، الذي يرى بأنه مجبر على التخلي عن هويته اللغوية ويرى أن الاندماج الحقيقي يكون متبادلا، فحتى المضيف لا بد أن يبدي اهتماما للغة وثقافة المهاجر وإلا فالاندماج ناقص وهو في رأيه ابتلاع وذوبان وتماه.

3-3-اللاجئ ونوستالجيا الوطن:

يعيش المهاجر في البداية مرحلة انبهار بالحضارة الغربيّة وبالمجتمع الغربي ويمكن عدّ هذه المرحلة شهر عسل بينه وبين بيئته الجديدة، إذ إن" الطابع العام لهذه المرحلة هو حب الاطّلاع والمعرفة والشعور بالأمان الآني، إنّها مرحلة الفضول والفرح والبهجة بالأشياء الجديدة، ولكن هذه المرحلة تنقضي بسرعة، هذه الصدمة غالبًا ما تؤدي بالمهاجر إلى الشعور بالحنين nostalgie إلى الوطن وإلى الماضي الذي يُعدّ من أخطر ما يمكن أن يؤثر في المهاجرين وفي اندماجهم في المجتمعات المضيفة."[25] فالهجرة ليست مجرد نزوح مكاني، بل تجربة وجدانية مركبة تبدأ بالأمان النسبي كحالة أولية ثم يعقبها الصدمة والحنين، إذ يظل المهاجر معلقا بين الماضي والحاضر بين التشبث بالهوية وبين الجاذبية للمكان الجديد وهو شعور معقد يعيق عملية الاندماج.

يعيش ألان هذه النوستالجيا منذ لحظة المغادرة الأولى للوطن التي يقرع فيها باب المضيف حيث يؤرقه شعور الفقد و يوجعه ويبعثره البعاد يقول: " اضطررت للهجرة عن بلدك قبل بدء الثورة السورية، بأربع سنوات، بعد أن ضاق بك وطنك، أم لأني حدثتها عن حنيني إلى داري البسيطة، وانتظاري أية فرصة للعودة إلى الوطن؟"[26]وفي مقطع آخر" قدمت لها اسمي، وقلت لها: أنا سوري، ولاجئ هنا، أنتظر استتباب السلام في بلدي، لأعود إليه، إنه لأعظم حلم بالنسبة إليَّ، أن أعود إلى وطني."[27] لقد أدرك ألان أن الأوطان نوعان وطن الآباء والأجداد، وهو الوطن الحقيقي والأبدي الذي زرعت فيه جذوره وسيظل مشدودا إليه يربطه به جذر سرمدي لا ينقطع، ووطن آخر ولد فيه لكنه يبقى وطنا عارضا، والعودة إلى الوطن ليست مجرد رغبة شخصية، بل حلم وجودي يربط بين الفرد ومكوناته النفسية والاجتماعية ومخاطبته لهذا البلد المضيف يعكس التوتر بين الانتماء المؤقت للغربة والولاء الدائم للوطن.

لم يستطع ألان التماهي مع المجتمع الجديد وقطع الصلة تماما بوطنه الذي لحقته أطيافه فحلت ذكريات يغذيها الشوق والحنين الجارف لذلك ظل يستعيد وطنا يحيا فيه يقول:" لا يمكن للمرء أن يرى جمال الطبيعة، وأن يعيش مع كائناتها،

إلا حين يكون في إحدى القرى السهلية، فأنا لم أعرف جمال الطبيعة إلا في قريتي تل أفندي، محطتي الأولى، بالرغم من أنه لم تكن فيها ولو شجرة واحدة، في قرية- طوبو- التي عملت فيها كان الأمر مختلفًا، كانت القرية بستانًا من الخضار وبعض الأشجار، لكني في كلتا القريتين تعرفت على الطبيعة: الشمس في لحظة حنوها الربيعي أو جنونها الصيفي، أو اختفائها الشتوي، أو صمتها الخريفي، المطر، الثلج، فصول السنة، الصحراء، المواسم، الإنسان في مواجهة الطبيعة."[28]

يبرز هذا المشهد السردي استعادة القرية وهي عنصر مركزي في أدب اللجوء فهي رمز للحنين والارتباط بالوطن، لذلك رغم قسوة الغربة وضراوة وطأتها يأتي الحنين لها ليضيء الذكريات كأوكسجين يطفئ دخان الظلام وحرقة البعاد، فيظل ألان ناظرا إلى الوطن ليستعيد بعض توازنه النفسي والعاطفي.

لكن الخطورة تظهر عندما يتحوّل الحنين إلى" أحد أشكال النكوصrégression،بوصفها ردّة فعل دفاعيّة لا شعوريّة على الإحباط والواقع المؤلم، وتعبيرًا عن الحاجة للدفء والأمان المفقودين، وردّة فعل على الضياع الوجودي؛ فصدمة الاستئصال الثقافي الّتي يعيشها المهاجر تترافق، دائمًا بشعور بالخسارة وفقدان الأهل والأصدقاء والذكريات، وفقدان الطمأنينة والاستقلال، وهذا ما يولّد لديه نوعًا من الإحساس بالإخفاق والإدانة الذاتيّة، وعدم القدرة على التصرّف والتفكير تفكيرًا مركّزًا، والشرود الدائم وشعور بالهزيمة والإحباط وحزن عام يسيطر على كيانه وكينونته."[29]، فالحنين قد يتحول إلى تجربة مؤذية نفسيا فلا يبقى مجرد شعور بالاشتياق، بل يصبح ردة فعل دفاعية لا شعورية على صدمة الاغتراب وإلى الإحساس بالإخفاق وعدم القدرة على التفكير والشرود المستمر والانعزال الداخلي، فيتحول إلى حالة نفسية مؤلمة تقف حاجزا أمام تحقيق التكيف.

هذا ما يعيشه ألان في الغربة حالة الشرود وانفصاله المؤقت عن الواقع والذي يكشف عن حالة نفسية متأزمة يقول: "لا أستطيع سماع أي شخص في العالم أكثر من نصف ساعة من الزمن."[30] إن هذه الحالة لا تعبر فقط عن تشتت ذهني، بل تعكس عمق الانشطار والاغتراب النفسي الذي يعيشه ألان مع واقع لم يستطع الانسجام معه تماما.

صحيح أنّ الهجرة تحمل حلم الخلاص وأمل النجاة، ولكنّها تبقى تجربة منفىً واغتراب؛ إذ إن المهاجر غريب في المكان الذي يحلّ فيه، إنه الوجود المشروط والقبول المشروط الّذي ينفي الإنسان عن ذاته ليبقى دائما يعيش على حافة الاغتراب النفسي، فالغربة ليست مجرد فقدان للمكان، بل أزمة وجودية شاملة تعكس العلاقة المعقدة بين الإنسان وهويته والآخر ضمن صراع مستمر بين الانتماء والإقصاء.

4-الخاتمة:

بناء على ما تقدم يمكننا أن نجمل نتائج الدراسة فيما يلي:

ـــإن مصطلح اللجوء تتعدد مفاهيمه وأسبابه فهو الهجرة من الوطن الأم، إلى بلد آخر مضيف وهو في أغلبه قسري هروبا من الأجواء الاستبدادية وبحثا عن والإنسانية والاستقرار.

- أدب اللجوء أدب ناتج من حالة محددة بزمان ومكان معين، توثق لصورة الإنسان اللاجئ ومعاناته بعد انفصاله عن موطنه الأصيل وحالته بعد العبور أو اللجوء.

- رواية جمهورية الكلب للروائي إبراهيم اليوسف رصدت وضعية اللاجئ حين تعرضت لهجرة السوريين إلى ألمانيا بعد الحرب التي عاشها الشعب السوري، مسلطة الضوء على صعوبة الاندماج في المجتمع الجديد، وتقارن بين عالمين مختلفين عالم الذاكرة وعالم الواقع الحاضر.

-وصفت الرواية صدمة الاستئصال الثقافي التي يعيشها اللاجئ وهو في البلد المضيف والتي نتج عنها الشعور بالحنين، والذي قد يتحول إلى شكل من أشكال النكوص بوصفه ردة فعل لا شعورية على الإحباط والواقع المؤلم.

-أيضا من نتائجه صعوبة الاندماج الثقافي والاجتماعي مع مجتمع يختلف اختلافا كليا في عاداته وتقاليده ومبادئه وتفاصيل حياته.

-عاش اللاجئ أيضا في الرواية إشكالية الاندماج اللغوي والذي هو شرط من شروط الانخراط وأحد العقبات والحواجز التي حالت دون تمكنه من التفاعل والتأثر والتأثير في المجتمع الجديد.

هوامش:

[1] خاص جلبي، (2017)، لماذا يهاجر المواطن العربي، مجلة يتفكرون، ملف الهجرة وسياسات الضيافة، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المملكة المغربية، الرباط، ع11، ص62.

[2] يسرى وجيه السعيد، (2017/08/7)، الأبعاد الفكرية لظاهرة اللجوء، (2025/08/20)، 20:55، https://www.mominoun.com

[3] محمد شوقي الزين، (2017)، الهجرة، المسكونية، المنزل المفقود، عناصر في هاجس الغرابة، مجلة يتفكرون، ملف الهجرة وسياسات الضيافة، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المملكة المغربية، الرباط، ع 11، ص16.

[4] ابن سيدة أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي، (2000)، المحكم والمحيط الأعظم، تح عبد الحميد هنداوي، ط1، ج7، لبنان، دار الكتب العلمية، مادة أ ج ل، ص487.

[5] عطية الله أحمد، دت، القاموس السياسي، ط3، القاهرة، دار النهضة، ص104.

[6] محمد السلوم، (2018)، أدب اللجوء السوري الشتات والتعبير الأدبي، مجلة أبحاث اجتماعية، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، قطر، تركيا، ص3.

[7] صليحة محمدي، آسيا بلخير، اللجوء دراسة في المفهوم والظاهرة، مجلة التراث، الجلفة، مج11، ع1، ص196.

[8] ريم بوش، نور الهدى عبادة: اللجوء آثاره وانعكاساته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأمنية، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج12، ع3، ص21.

[9] عبد القادر داود، أدب اللجوء في الرواية السورية الحديثة، (2020/03/24)، (2025/08/22) 10:13، https://alriwaya.net/post/reviews/6171

[10] المرجع نفسه.

[11] طارق بوحالة، (2017/01/12)، تمثيلات المهاجر في الرواية الجزائرية المعاصرة عمارة لخوص أنموذجا، (2025/08/24)، 15:30، https://thakafamag.com

[12] عبد الله إبراهيم، 2016، موسوعة السرد العربي، ط1، ج7، دبي، قنديل للطباعة والنشر والتوزيع، ص17.

[13] عزام أمين، (2017/02/7)، الهجرة وصدمة الاستئصال الثقافي، (2025/08/25)، 22:30، https://microsyria.com

[14] إبراهيم اليوسف، (2020)، جمهورية الكلب استعادات لوقائع غامضة، ط1، عمان، خطوط وضلال للنشر، ص13.

[15] المصدر نفسه، ص14.

[16] المصدر نفسه، ص184.

[17] المصدر نفسه، ص11.

[18] المصدر نفسه، ص21.

[19] فريد أمعضشو، (2013)، مشكلة المهاجرين في أوروبا، (2025/04/9) 22:50، www.alkalimah.net

[20] إبراهيم اليوسف، جمهورية الكلب، ص13-14.

[21] المصدر نفسه، ص79.

[22] المصدر نفسه، ص105.

[23] المصدر نفسه، ص105.

[24] المصدر نفسه، ص176.

[25] أمين عزام، الهجرة وصدمة الاستئصال الثقافي.

[26] إبراهيم اليوسف، جمهورية الكلب، ص85.

[27] المصدر نفسه، ص96.

[28] المصدر نفسه، ص51.

[29] أمين عزام، الهجرة وصدمة الاستئصال الثقافي.

[30] إبراهيم اليوسف، جمهورية الكلب، ص60.

قائمة المراجع:

الكتب:

1. إبراهيم اليوسف، (2020)، جمهورية الكلب استعادات لوقائع غامضة، ط1، عمان، خطوط وضلال للنشر.
2. ابن سيدة أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي، (2000)، المحكم والمحيط الأعظم، تح عبد الحميد هنداوي، ط1، ج7، لبنان، دار الكتب العلمية، مادة أ ج ل.
3. عبد الله إبراهيم، 2016، موسوعة السرد العربي، ط1، ج7، دبي، قنديل للطباعة والنشر والتوزيع.
4. عطية الله أحمد، دت، القاموس السياسي، ط3، القاهرة، دار النهضة.

المجلات:

1. خاص جلبي، (2017)، لماذا يهاجر المواطن العربي، مجلة يتفكرون، ملف الهجرة وسياسات الضيافة، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المملكة المغربية، الرباط، ع11، ص1-464.
2. ريم بوش، نور الهدى عبادة (2020)، اللجوء آثاره وانعكاساته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأمنية، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج12، ع3، ص17-26.

3. صليحة محمدي، آسيا بلخير، (2021)، اللجوء دراسة في المفهوم والظاهرة، مجلة التراث، الجلفة، مج11، ع1، ص191-211.
4. محمد السلوم، (2018)، أدب اللجوء السوري الشتات والتعبير الأدبي، مجلة أبحاث اجتماعية، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، قطر، تركيا، ص1-14.
5. محمد شوقي الزين، (2017)، الهجرة، المسكونية، المنزل المفقود، عناصر في هاجس الغرابة، مجلة يتفكرون، ملف الهجرة وسياسات الضيافة، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المملكة المغربية، الرباط، ع 11، ص1-464.

المواقع الالكترونية:

1. طارق بوحالة، (2017/01/12)، تمثيلات المهاجر في الرواية الجزائرية المعاصرة عمارة لخوص أنموذجا، (2025/08/24)، 15:30، https://thakafamag.com
2. عبد القادر داود، أدب اللجوء في الرواية السورية الحديثة، (2020/03/24)، (2025/08/22) 10:13، https://alriwaya.net/post/reviews/6171
3. عزام أمين، (2017/02/7)، الهجرة وصدمة الاستئصال الثقافي، (2025/08/25)، 22:30، https://microsyria.com
4. فريد أمعضشو، (2013)، مشكلة المهاجرين في أوروبا، (2025/04/9) 22:50، www.alkalimah.net
5. يسرى وجيه السعيد، (2017/08/7)، الأبعاد الفكرية لظاهرة اللجوء، (2025/08/20)، 20:55، https://www.mominoun.com